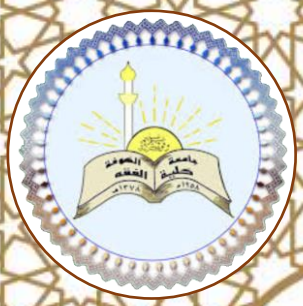

مجلة كلية الفقه

مجلة فصلية علمية محكّمة

تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة

الرقم الدولي: ISSN 1995-7971

العدد الحادي والثلاثون – السنة الحادية عشرة

ربيع الثاني / ١٤٤١هـ – كانون الأول / ٢٠١٩م

المشرف العام

الأستاذ الدكتور

ستار جبر الأعرجي

عميد كلية الفقه

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور

محمد صبار نجم

مدير التحرير

الأستاذ المساعد الدكتور

فاضل مدب متعب

مقوم اللغة العربية

الأستاذ المساعد الدكتورة

إنتصار راضي عليوي

جامعة الكوفة – كلية الفقه

مقوم اللغة الإنكليزية

الأستاذ المساعد الدكتورة

هناء غني خليف

الجامعة المستنصرية – كلية الآداب

هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور	هادي حسين هادي الكرعاوي
الأستاذ الدكتور	محمد محمود زوين
الأستاذ الدكتور	رؤوف أحمد محمد الشمري
الأستاذ الدكتور	عباس علي كاشف الغطاء
الأستاذ الدكتور	حسين سامي عبد الصاحب
الأستاذ الدكتور	محمد علي هاشم الأسدي
الأستاذ الدكتور	كريم شاتي شبوط السراجي
الأستاذ المساعد الدكتور	حيدر محمد علي السهلاني
الأستاذ المساعد الدكتور	مهند مصطفى جمال الدين
الأستاذ المساعد الدكتورة	خولة مهدي شاكر الجراح

الهيئة الإستشارية

الأستاذ المتمرس الأول	محمد حسين علي الصغير	العراق
الأستاذ المتمرس الدكتور	عبدالأمير كاظم زاهد	العراق
الأستاذ الدكتور	حسن عيسى الحيكم	العراق
الأستاذ الدكتور	محمود محمد حسن المظفر	مكة المكرمة
الأستاذ المتمرس الدكتور	صاحب محمد حسين نصار	العراق
الأستاذ الدكتور	حازم سليمان الحلي	ألمانيا
الأستاذ الدكتور	علي حسين الجابري	جامعة بغداد / العراق
الأستاذ الدكتور	سلامة حسين محمد	جامعة بغداد / العراق
الأستاذ الدكتور	صباح عباس عنوز	جامعة الكوفة / العراق
الأستاذ الدكتور	علي ناصر غالب	العراق
الأستاذ المساعد الدكتور	أحمد فاضل السعدي	جامعة طهران / إيران

الشروط العامة للنشر

١- أن لا يكون البحث قد سبق نشره في أية مجلة علمية أو شارك في مؤتمر.

٢- أن لا يكون البحث مقدماً للنشر في مجلة أخرى.

٣- أن لا يزيد عدد صفحات البحث عن (٢٠) صفحة، حجم A4.

٤- يتضمن البحث الفقرات الآتية:

أسماء الباحثين ومراتبهم العلمية، أماكن عمل كل منهم، المستخلص (بالعربي والإنكليزي)، المقدمة (الموارد وطرائق العمل)، النتائج والمناقشة والمصادر.

٥- يحتوي البحث على المستخلص باللغة الإنكليزية على أن لا يتجاوز ٢٠٠ كلمة.

٦- تقدم البحوث مطبوعة باستعمال برنامج Microsoft Word وبخط Simplified Arabic وبحجم (١٤) للعنوان الرئيسي للبحث وبحجم (١٢) لإسم الباحث ومرتبته العلمية ومكان عمله، ونفس الحجم للنصوص والعناوين الفرعية (٨) لهوامش الجداول إن وجدت، ويكتب البحث على وجه واحد من الورقة مع ترك مسافة سطر واحد بين المواضع وسطر واحد بين المقاطع.

٧- يشار إلى المصدر في متن البحث بالأرقام، وتكون محصورة بقوسين مربعين (١) ولا يذكر بجانب الرقم في المتن أي شيء آخر.

٨- يترك مسافة الحواشي بمقدار ٢,٥ سم على الجوانب الأربع للصفحة.

٩- تكتب المصادر في نهاية البحث بحسب تسلسل ورودها في المتن وشروط البحث العلمي في ذلك.

١٠- تقدم البحوث مطبوعة مع قرص CD مسجل عليه البحث وفق المتطلبات المشار إليها.

١١- يسلم الباحث مبلغ (٢٠,٠٠٠) دينار عراقي أو ما يعادله كدفعة أولى لقاء إيصال رسمي إلى حسابات المجلة، ويكمل المبلغ بحسب الضوابط في حال قبول البحث للنشر في المجلة ويسقط حق الباحث بالمطالبة بالدفعة الأولى في حال رفض البحث.

١٢- يزوّد كل باحث بنسخة واحدة من العدد المنشور فيه بحثه، ولا يرد أصل البحث الذي أرسل إلى المجلة نشر أو لم ينشر.

كلمة التحرير

حائط الصدّ

تُشغلُ واقعَنا الفكريّ اليوم جملةٌ من المشاكلِ والتحدّياتِ الّتي تُؤشّر مساراته وتؤثّر فيها، وتحدّد طبيعةَ الحواراتِ والاشتغالاتِ الّتي يتوجّه إليها الباحثون والدارسون ويتفاعلوا معها، كلٌّ حسبَ منطلقاتِهِ وأُسسِ تفكيرِهِ ومنهجِهِ رَفْضَاً أو قَبُولاً، وتنعكِسُ المواقفُ منها في كثيرٍ من الأحيانِ على الساحةِ الفكريّةِ عُمُوماً وربّما تتشكّلُ المواقفُ والمتبنّياتُ على أساسِها.

وتبرزُ على أساسِ ذلك في الغالبِ كتلٌ معرفيّةٌ واتّجاهاتٌ فكريّةٌ تتصارعُ على من يُمثّلَ الواجهةَ في المشهدِ، ومن يعجزُ عنْ تَسيّدِها فيلوذُ إلى خلفيّتِهِ أو يَنْكَفِئ إلى الانعزالِ.

وعلى رأسِ مَا يُشْغِلُ واقعَنَا اليومَ الدعواتُ إلى إعادةِ التعاملِ معَ النصِّ الدينيّ وفسحُ المجالِ أمامَ تعدّدِ القراءاتِ.

وتَنزلُ الحداثةُ إلى الميدانِ بقُوّةٍ وتحتلُّ منَ المشهدِ واجِهَتَهُ دُونَ منافسٍ حقيقيٍّ أو قائمٍ بالزحزحةِ ودُونَ أنْ تَكونَ لها حقٌّ في الأهليّةِ الكاملةِ على أنْ تكونَ متسيّدَةً للميدان بهذا الشكلِ، وهذا ما يُؤشّر بوضوحٍ ضعفَ حضورِ البديلِ الموضوعيّ وفاعليتِهِ في المواجهةِ.

وليس هذا ضَعْفَاً في منظومةِ التراثِ أو قابلياتِ المرجعياتِ الّتي يُستمدُّ منها بقدرِ ماهو ضعفُ بلورةِ المفاهيمِ وقابلياتِ الإفهامِ على انتزاعِها وتشكيلِ ملامحِ المنظومةِ الفكريّةِ الّتي تُبْنى عليها وتنجحُ في استيعابِ ملامحِ الرؤيةِ الكونيّةِ المستمدّةِ منها والّتي تُؤمّن الفاعليةَ والقدرة على المواجهةِ.

إنّ من واجباتِ الفكرِ الإسلاميّ اليومَ وأهمّ مسؤولياتِه أنْ يُبلورَ رؤيةً جديدةً وقراءةً معاصرةً تُؤمّنُ الاستجابةَ للتحدياتِ الفكريّةِ واستيعابَها للرؤيةِ الكونيّةِ والمنظورِ الاسلاميّ لتقدّمَ الاجابةَ

كلمة التحرير

الكاملةَ للتساؤلاتِ والاشكالاتِ المختلفةِ المطروحةِ اليومَ لأداءِ مَهَّمَةِ سدّ الطريقِ ومَلْإ الثغراتِ التي تُنتجُها مقولاتُ الحداثةِ وتتحرّكُ كإشكالاتٍ مُؤثّرةٍ ومُتبناةٍ من الكثيرينَ، وهكذا فإنَّ هذا التحدّي الكبيرَ يُلزمنا بمَهَمّتين رَئيستين:

١- بلورةِ المفاهيمِ وتأمينِها بمجموعِها لتكوّنَ ملامحَ الرؤيةِ الكونيّةِ وموقفَ المنظورِ الاسلاميّ في مختلفِ القضايا والمشكلاتِ والإشكالاتِ.

٢- تأمينِ حائطِ صدٍّ ومنظومةِ ردّ شبهاتٍ، وتحريرِ الأجوبةِ الواقعيّةِ للتساؤلاتِ والإشكالاتِ، وتشكيلِ منظومةِ الاستدلالِ الداعمةِ والموثّقةِ لهذهِ الرؤيةِ الكونيّةِ والمنظورِ الاسلاميّ مِنْ خلالِ انتزاعِ الأدلّةِ والحججِ والبراهينِ الموثقّةِ والمصدّقةِ لكلِّ مَلْمحٍ مِنْ ملامحِ الشريعةِ والعقيدةِ والتراثِ .

وهذا العدد من مجلتنا الغراء يستوعب هذه الحاجات ويلتفت الى لوازم الاستجابة لتحدياتها في العديد من بحوثه ويرسل رسالة واضحة للتنبيه الى ضرورة إعادة تشكيل منظومة الاستدلال والرد (حائط الصد) ليكون مؤهلاً بالكامل للوقوف في مواجهة الشبهات والاشكالات المعاصرة والانتقال من رد الفعل الى الفعل وتقديم الرؤية الكونية الإسلامية المؤمنة والمدعومة بالحجة والدليل.

أ.د. ستّار جبر الأعرجيّ
عميد الكلّيّة
المشرف العام

جدول المحتويات

١	دلالات النص على المعنى وما بعد المعنى قراءة في الإشكالية	١٣-٣١
	د. إحسان الأمين	
٢	مباني الشيخ الأنصاري في مباحث الحجة مباني القطع أنموذجاً وتطبيقاته الفقهية	٣٣-٤٤
	الباحث: حسنين بدر نجف أ.د. هادي حسين الكرعاوي	
٣	الأساس الفلسفي للقراءة التاريخية وانعكاسه على النص الديني	٤٥-٦٨
	م.د سعد جاسم الكعبي أ.د.كريم شاتي السراجي	
٤	المسؤولية الاجتماعية لدى موظفي كلية التربية	٦٩-٨٩
	م.م. سيف ناجح السلطاني أ.د. فاضل محسن الميالي	
٥	البعد الوظيفي التداولي للعلامات في رسائل الإمام علي (ع)	٩١-١٠٨
	م.د.مرتضى شناوة فاهم العرداوي أ.د. كريمة نوماس المدني	
٦	القدرة الشرعية والعقلية عند أصوليي الإمامية	١٠٩-١٢٩
	أ.م.د. صلاح عبدالحسين المنصوري	
٧	نظرية تعويض الأسانيد إشكال في بعض تطبيقاتها	١٣١-١٥٦
	الباحث: مصطفى زكي يحيى	
٨	مستند الاحتياط الوجوبي في الفقه الإسلامي	١٥٧-١٨٩
	بحث مشترك: ١- أ.م.د صادق حسن علي الطفيلي ٢- كامل كاطع غنتاب	
٩	قوانين عرض المعلومات في الفضاء المجازي الافتراضي في ضوء القواعد الفقهية	١٩١-٢٠٧
	أ.م.د. محمد حسين ملايكة بور قاسم سيد نور الدين مراديان وفايي	
١٠	فكر الإمامة وتأثيرها على الحضارة البشرية	٢٠٩-٢٣٣
	علي راد مهر طالب د. عبدالحسين خسرو بناه أ.د. أبو الفضل روحي	

جدول المحتويات

١١	جملة الشرط بين القدماء والمحدثين	٢٣٥-٢٤٧
	أ.م.د. انتصار راضي عليوي	
١٢	عقد الصيانة دراسة فقهية مقارنة	٢٤٩-٢٦٧
	إعداد: م.د. سهام علي حسين الناصري	
١٣	المحددات الأصولية لفهم النص التشريعي وعلاقتها بإشكالية المطلق والزمني دراسة تحليلية	٢٦٩-٢٩٠
	م.د. أسعد عبدالرزاق طعمة الأسدي	
١٤	الآراء الفقهية للسيد محمد باقر الصدر (نظرية خلافة الأمة وإشراف الفقيه إنموذجاً)	٢٩١-٣٢٩
	م.د. محمد فرحان عبيد النائلي	
١٥	هذه الرسالة في علم المعاني محلها عند قول صاحب "التلخيص" عند ورود الأمر للتعجيز نحو: (فأتوا بسورة من مثله) لخاتمة المحققين ببلد الله الأمين العلامة السيد أحمد بن زيني دحلان (ت١٣٠٤هـ)	٣٣١-٣٨٣
	تحقيق: م.د حسين عيدان مطر الشمري	
١٦	النفي في المناجاة الخمس عشرة الملحقة بالصحيفة السجادية - دراسة نحوية	٣٨٥-٤٠١
	م.د. وداد حامد عطشان السلامي	
١٧	نقد متن الروايات المفسرة للقرآن الكريم	٤٠٣-٤٢٥
	م.د. لواء حميزة كاظم العياشي	
١٨	مشكلة تدريس علم الاستعارة المعوقات والحلول المقترحة	٤٢٧-٤٤٨
	م.د. مصعب مكي زيبية	
١٩	دلالة الفصل عند المفسِّرين قراءةٌ في الآية (السابعة عشر) من سورة الحج	٤٤٩-٤٧٤
	م.م وسام فخري جويّح الحسناوي	
٢٠	الاجتهاد في الرؤية الحداثوية	٤٧٥-٥١٠
	م.د. حميد صبّار كاظم الأعرجي	

جدول المحتويات

٢١	التكافؤ الدينامي للترجمة من العربية إلى الفارسية في ضوء الدراسات النصية	٥١١-٥٢٩
	أ.م.د. سعد الله همايوني رضا بيات	
٢٢	الشعر والخطابة والأمثال من منظور إسلامي	٥٣١-٥٧٨
	م.د سناء لطيف عبدالرزاق الخرسان	
٢٣	المعالجات الأخلاقية عند محمد حسن القزويني	٥٧٩-٦١٣
	م.د. انتصار سلمان سعد	
٢٤	موقف أبي طالب من فجر الدعوة الإسلامية حتى وفاته - دراسة تاريخية -	٦١٥-٦٢٦
	الباحث: حسين نبيل جواد الخاقاني / رئاسة جامعة الكوفة	
٢٥	أساليب تهذيب النفس في النص القرآني دراسة تحليلية في البنى النحوية	٦٢٧-٦٤١
	م.م. انتصار عبدالأمير جبار الخالدي	
٢٦	مبدأ الزوجية في الخلق وأثره في بناء الأسرة الإسلامية (دراسة كلامية فقهية)	٦٤٣-٦٩١
	أ.م.د. رزاق حسين العرباوي	

دلالات النص على المعنى وما بعد المعنى قراءة في الاشكالية

د. إحسان الأمين

يعرف التفسير: بأنه استخراج المعنى من ظاهر اللفاظ ومداليله، وأداة التفسير هي اللغة وإنما يرجع في القرآن لفهم المصطلح في الآية الى القرآن نفسه من لمعرفة المدلول المراد في حالة الألفاظ المشتركة أو الاستعمال المجازي وكل هذا يتحرك في حدود اشتغالات اللغة واستعمالاتها التي نزل بها القرآن واختارها الله تعالى لتعبّر عن مراده. واما ما يروى من روايات فإذا كانت تفسيراً فهي من قبيل الشروح والبيان اللغوي والاستعمالي للآيات وإلاَ فإنها غالباً ما تكون من التأويل أي بيان المراد من الآيات مفهوماً وتطبيقاً، وكذلك المروي عن الصحابة فإنَّ قيمة هذه المرويات تأتي من فهمهم للغة ومعايشتهم لنزول النص ومناسباته المقالية والحالية، فهي في النهاية أقوال الخبراء بمقال النص واحواله.

ولما كان القرآن كما اثبتت الدهور كتاب بيان وهداية للناس جميعاً فقد يسّره الله تعالى للقراءة والتدبَر كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[1] وقد جاء محكمه مبيناً لنِفسه بل هو تبيان لكل شيء ولا يمكن أن يكون محتاجاً الى غيره، وإنما يمكن تفسيره بالاستعانة بأدوات اللغة اوبالرجوع الى

القرآن نفسه ومعرفة علومه المختلفة كما يمكن وضع قواعد لتفسيره ونقد تفاسيره بموجب هذه القواعد المستسقاة من اللغة والقرآن والمبادى العامة للإسلام فكان التفسير علم له أصوله وقواعده التي يمكن الرجوع اليها[٢].

ويمكن القول أن التفسير: ترجمة اللفظ القرآني كلمة أو آية أو آيات الى ما يوافقها بالمعنى بلغة ميسَّرة أكثر وضوحاً للقارئ غير الضليع بلغة القران ونسق خطابه، والترجمة بشكل عام يمكن أن تكون قريبة لمعنى اللفظ، ولذا فالتفسير تقريب من المعنى المراد. والتراجم لاعتمادها على أصول متفق عليها غالباً من اللغة ومعرفة سياقاتها تكون غالباً متقاربة من المفسرين والمترجمين أيضاً، وإن كانوا غير مسلمين، كما نجده في تراجم معظم القرآن الكريم من قبل المترجمين الى لغة معينة..

قد يكون هناك اختلاف في الصياغة والقدرة الأدبية على تمثيل المعنى ولكن يبقى المعنى بشكل عام متقارباً.

بيد انه قد تبقى بعض الآيات عند بعض القراء مجملة أو مبهمة أو متشابهة، وهذا الاجمال أو الابهام أو التشابه ليس ذاتياً في الآيات لأنّ كلّ آيات القرآن بيّنة وكلّها محكمة[٣]، ولكن التشابه والابهام والاجمال يكون في ذهن القارئ إما لعدم ادراكه دقة المعنى المراد أو عدم استيعابه لغة القرآن أو لظهور شبهة عندهُ فهو تشابه نفسي خارج عن النص ولذا يرتفع هذا التشابه عند الرجوع الى آيات القرآن الأخرى أو الى الراسخين في العلم او المتضلعين في اللغة وعلوم القران ليتبين للإنسان ما التبس عليه ويرتفع الابهام، وكذلك الاجمال[٤].

مثال ذلك قوله تعالى في ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٥]. فقد يشتبه على بعضهم بأنّ المراد باليد هنا اليد الجارحة في جسد الانسان، اي الالة الجسمية للإنسان، ولكن هذا التشابه أو الخطأ في الفهم ناتج من عدم الاضطلاع باللغة وأساليبها، خصوصاً انزياحات المجاز وسعة استعماله في العربية، ولم يخطر في بال المخاطبين باللغة من عرب قريش أنها اليد الآلة وإنما فهموا أنّ المراد منها المعنى المجازي اي القوة والسطوة لذلك فسّرها المفسَرون على أنها: يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويده في المنة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة، وقال الكعبي: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة،

وقال ابن كيسان: قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم[٦].

وقد أورد الاصفهاني المعاني والاستعمالات المختلفةَ لكلمة يد، بعد أن عرَفها ابتداءً بأنها: اليد الجارحة... قال: واستعير لفظ اليد للنعمة للحَوز والمُلك، وللقوة ويقال: فلان يد فلان، أي وليه وناصره، ويقال لأولياء الله هم أيدي الله، وعلى هذا الوجه، قال عزَ وجلَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فإذاً يده عليه الصلاة والسلام يدُ الله، واذا كانت يده فوق أيديهم فيد الله فوق أيديهم... وقوله تعالى: ﴿مما عملت أيدينا﴾ وقوله تعالى: ﴿بما خلقت بِيَدي﴾ فعبارة عن توليه لخلقه باختراعه الذي ليس إلا له عزّ وجلَ...[٧] ومعاني اليد المجازية متداولة حتى اليوم، فيقول الناس: يده نظيفة ويده بيضاء بمعنى أنه نزيه وأمين في المعاملة.

التفسير والتأويل: تدافع المبنى وجدل المعنى.

يجد المراجع لتاريخ التفسير ومراحل تدوينه ومراتب المفسرين والاختلاف بينهم في تأويله يجد أنّ تدافعاً كان منذ البدايات الأولى لمراحل التدوين في الفهم والاستعمال بين مصطلحي التفسير والتأويل، فتم التداخل، والخلط، والتطابق بينهما لدى كثيرين، وترتب على ذلك آثار خطيرة فيما بني عليهما من فكر ومفاهيم وأحكام، تزاحمت وتدافعت في مجالات العمل والتشريع. وكان من تلك الآثار، الخلط بين فهم الآية وتأويل المفسرين بما يناسب زمانهم وتطبيق ذلك على الأخبار والحوادث المتغيّرة، وجعلها بمصافٍ واحد، وليأخذ الفهم البشري المتغيّر للنص بعداً من التقديس والجمود عليه محل النص الأصلي ورسالته.

وهذا التعدد في الفهم والتأويل دفع بعضهم إلى التشكيك في كلّ ما وصل إلينا من تراث والذهاب الى القول بأن أيّ نص قابل للفهم المتعدّد - دون ضوابط - فلكلّ قراءته وتأويله، ولذا نحن أمام قراءات بعدد أبناء البشر، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أنّ قراءته هي الصحيحة وأنّ يعطيها الشرعية دون غيرها، فضلاً عن أن يفرضها على الآخرين ويجبرهم على العمل بها[٨].

ولعلّ هذا الخلط بين الأمرين: التفسير والتأويل هو الذي مهّد لبروز الاختلاف الكبير، في المباني والمعاني المشتقة منهما، والى أن يرى بعضهم أن لاوجود لضوابط للفهم ولا وجود لقواعد للنقد

ومحاكمة الآراء، ليترجّح من طريقها رأي على آخر، وفي ضوء ذلك فتح باب التأويل والتفسير على مصراعيه: "قوم اعتقدوا معانٍ ثم أرادوا حمل ألفاظ القران عليها، وآخرون يفسرون القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب من غير نظر الى المتكلّم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطَب به.

فالأولون: راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر الى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان، وراعى الآخرون مجرد اللفظ، وما يجوز أن يريد به العربي، من غير نظر الى ما يصلح للمتكلِّم وسياق الكلام"[٩].

وإنما أرجعنا كثيراً من الاخطاء، في الفهم والتطبيق الى الخلط بين التفسير والتأويل، أن الأول يتعلّق بفهم ظواهر ألفاظ القرآن، وقد جاء القران مخاطباً عموم الناس، ليوصل إليهم دعوته ويقيم عليهم حجته، فليس معقولاً أن يخاطبهم بلغةٍ لا يعلمونها أو يحاججهم بمفاهيم لا يعقلونها، إذ كان معلوماً أنه من غير الجائز أن يخاطب جلّ ذكره أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطَب، ولا يرسل الى أحد منهم رسولاً إلاّ بلسانٍ وبيانٍ يفهمه المُرسَل إليه[١٠]، وكان التفسير- كما سبق - هو بيان المعنى الذي تدل عليه ألفاظ الآية، أو الآيات، وهو الذي يتوصل اليه عادة من طريق أدوات اللغة ودلالات الآيات، وغالب التفسير واضح وأكثره متفق عليه، لأن للتفسير مبانٍ وأصول وقواعد ووسائل يشترك فيها غالب المفسرين، فهي إما تعتمد المعنى اللغوي الظاهر من الآيات أو بالاستناد الى المأثور من الروايات وأقوال المفسرين السالفين، والتي لا تعارض القرآن ولا دلالات اللغة، ولا المبادئ العامة للدين، وفي رواية عن ابن عباس أنه قال التفسير على أربعة أوجه: جهة تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله[١١]. فالقسم الأول يعرف باللغة، والثاني ما يخصّ المرتكزات الاساسية للإسلام وخطوطه العامة، المتوافق عليها والواضحة البينة في كثير من آيات القرآن، وهو يشكل عقيدة المسلمين ومورد إجماعهم، " فهو ما يلزم الكافة من الشرائع التي في القرآن وجمل دلائل التوحيد"[١٢]. والقسم الآخر يعلمه العلماء من تفصيل الاحكام الشرعية بما اطلعوا عليه من السنة والروايات الواردة فيها. والأخير لا يعلمه إلا الله كتفسير بعض الغيبيات. ولعل القسم الأخير يدخل في باب التأويل، أكثر من أن يكون تفسيراً.

وإذا علمنا أنّ القرآن نزل ميسراً بلسان العرب المخاطَبين به، وأنهم كانوا يفهمون خطابه ويعلمون المراد ـ بالجملة ـ من ألفاظه...، فإن المراد من التفسير هو المعنى المتبادر من الآيات، مفرداتٍ وجملاً، مع الأخذ بنظر الاعتبار السياق وسبب النزول، مما يوجه الخطاب الى معنى معين، بلحاظ مناسبة الخطاب والمخاطَب به، وبقول مختصر: إنّ التفسير وكما يقول أبو طالب التغلبي هو: بيان وضع اللفظ، إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير الصراط: بالطريق، والصيب بالمطر.

أما التأويل: فهو تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأوْل، وهو الرجوع لعاقبة الأمر، فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير: إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل.

التأويل هو المطلوب من تفسير لايصل اليه الا المتامل: "وتواضع الأدلة تقتضي بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ في اللغة"[١٣].

إذاً التفسير يمكن فهمه من النص نفسه وباستعمال أدوات اللغة التي نزل بها، لأنه يدور مدار الألفاظ وظواهرها ومداليلها، وما يمكن الاستفادة منها بالمطابقة والتضمّن والالتزام وغيرها من الدلالات اللغوية لذا فإن القرآن عند نزوله، كان بيّناً بالنسبة الى المخاطَبين به[١٤]، بصورة عامة، وهم الفصحاء والبلغاء عامة الذين يعرفون معاني ظواهر الآيات ومقاصدها العامة، ولذلك لم نشهد في عصر نزول القرآن حاجة كبيرة لا من قِبل المسلمين ولا من غيرهم للسؤال عن المعاني الظاهرة والمراد من الخطاب القرآني.

على الرغم من أن القرآن تحدى المشركين أنّ يأتوا بمثل القرآن، وكان بعض أئمة الكفر يبحثون عن ثغرات للطعن في القرآن، إلا أنهم وقفوا عاجزين امام البيان القرآني فلم يدّعوا وجود الإبهام أو اللبس فيه، فهو: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[١٥].

نعم الجاهلون الذين حالهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[١٦] هؤلاء لا يسعهم فهم القرآن ومعرفة غاياته لأنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[١٧].

لقد كان المسلمون يتعاملون مع آيات الله يومياً ويعيشونها تفصيلياً، ولذلك كانوا بالأعم الأغلب، يفهمون معاني القرآن الظاهرة ويدركون مراميه العامة، ولذلك قلّ سؤالهم عن معاني ألفاظه ومعاني

آياته ومن هنا قلَّ المأثور عن النبي (ﷺ) في التفسير، - ولقله سؤالهم عنه - ولذلك عقّب السيوطي على قول الزركشي بأن نأخذ التفسير أربعة، أولها: النقل عن النبي (ﷺ) وهو الطراز المحكم... قال: الذي صحّ من ذلك قليل جداً، بل أصل المرفوع منه في غاية القلة، وسأسردها كلها آخر الكتاب إن شاء الله تعالى[١٨]، وقد ذكرها السيوطي في آخر كتابه فكانت نحو مئتين واثنين وثلاثين رواية، بما فيها الضعيف والمرسل[١٩]

وإذا كان التفسير واضحاً وجلياً للرعيل الأول من المسلمين ومن عايشهم من غيرهم فلماذا نجد بعض الصحابة كانوا يخطأون في فهم بعض الآيات وآخرون يسألون عن معاني آياتٍ أخرى؟

والواقع أن الصحابة بشر يتفاوتون في الفهم، كما يختلف الناس في فهم ثقافتهم ولغتهم، تبعاً لاختلاف استعدادهم الذاتي ومقدار معرفتهم ومدى متابعتهم لما نزل من القرآن ومعايشتهم ومصاحبتهم للرسول (ﷺ) لذلك كانت معرفتهم بالقرآن نسبية، ويتفاوتون في فهم الآيات، وربما غابت عن بعضهم بعض معانيها لعدم حضورهم عند نزولها ومعايشتهم لزمانها... قال الراغب: "ثم إن القرآن وإن كان في الحقيقة هداية لكل البشر، إلا أنهم لا يتساوون في معرفته، وإنما يحضون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم، فالبلغاء تعرف من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلمون من براهينه العقلية، وأهل الآثار من قصصه، ما يجهله غير المختصّ بفنه، وقد علم أن الانسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه[٢٠].

أما التأويل: لغةً: فهو ما يؤول إليه اللفظ من معنى، فهو يستعمل غالباً لمعرفة المعاني الكامنة وراء النص، لا ظاهر اللفظ الذي هو التفسير، وقد ذكرنا عن أبي طالب التغلبي أن التأويل: تفسير باطن اللفظ في مقابل التفسير الذي بيان وضع اللفظ[٢١]، ذلك أن للنص ظهوراً يستفاد من ألفاظه ونظمه وسياق خطابه ومناسبات نزوله وهو التفسير ولكن هناك معانٍ تكمن ما وراء النص ومقاصد هي المرادة منه ومجالات تطبيقية له وآفاق ينفتح عليها، وهذا كله ما يمكن أن يدخل في باب التأويل، يوصف التأويل من ألأول، وهو الرجوع الى الأصل وهو ردّ الشيء الى الغاية المراد منه علماً كان أو عملاً[٢٢]. ومن هنا فإن التفسير مختلف عن التأويل من حيث أن الأول يكثر إستعماله

في الألفاظ ومفرداتها، والثاني يكثر إستعماله في المعاني[٢٣]. ويعبر عن التأويل بأنه الحقيقة الخارجية[٢٤]، أو أنه الحقيقة الواقعية[٢٥]، أو أنه تفسير المعنى وما يؤول إليه المفهوم العام ويتجسّد به من صورة ومصداق[٢٦].

وقد حثّ القرآن الكريم عامة مخاطبيه الى التدبّر والتأمل في آياته وذمّ الجمود على معانيه الظاهرة بمجرد السماع دون الوصول الى المعاني السامية الكامنة وراء الالفاظ، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ﴾[٢٧]، وقوله ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٨] وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢٩]، والآيات في ذلك كثيرة، إذ نزل القرآن بالأمثال والحكم كي يعتبر بها الناس ويستنيرون بها في حياتهم ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٣٠]. وهذا التَفكّر والتعقل والتذكّر من الآيات والغوص في الآيات لاكتشاف الغايات التي تروم إليها، بالانتقال من اللفظ الى المفهوم الذي يحمله هو التأويل بعينه، وكأنه يجيب عن تساؤل حياتي متداول: ما القصد من هذا الكلام؟ أو ماذا يريد الشارع من هذا النص؟

والمتحصّل من ذلك كله أن للكلام حقيقة خارجية أو واقعية، يهدف الكلام الى إيصالها الى ذهن المستمع، وهذه الحقيقة تارة تتمثل في صورة ذهنية، أي أنه يريد إيصال مفهوم يستنبط ويفهم من الكلام، فيكون الكلام بمثابة المثل الذي يحمل مفاهيماً وقيماً أو يحكي سنناً وقوانين حياتية تكمن وراء النص كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٣١]. وتارة أُخرى يكون لهذا الكلام حقيقة واقعية خارجية، أي مصداقاً به يتمثّل أو يتجّسد المعنى المراد من الكلام، فتكون تلك الحقيقة تأويل الكلام والمراد منه.

وكمثال للأول قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[٣٢] فإن تفسيره اللفظي: من الرصد، يقال رصدته رَقِبته، والمرصاد: مفعال منه، فيكون التفسير أن أالله تعالى ـ للظالمين ـ بالمرصاد، يرقبهم ويترصد خطواتهم، وتأويله: التحذير من التهاون بأمر أالله والغفلة عن الأهية والاستعداد للعرض عليه[٣٣]، وحسابه الشديد لهم. وفي ضوء ذلك فإنّ التحذير من عقابه والتنبيه على أنه يراقب كل حركاتهم وسكناتهم، فهم في قبضته، كما يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ...﴾[٣٤]

والناظر في سائر آيات القرآن يجد أنها تحمل مفاهيماً وعبراً ومقاصداً وغاياتٍ تكمن وراء الآيات وألفاظها، وأن هذه المعاني الماورائية هي المقصودة في الآيات وأنها هي المرادة بالدعوة الى التدبّر فيها، عملاً بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٣٥]، وهذا المعنى، المقصود والكائن وراء الألفاظ هو أمر مستساغ بل مطلوب من أي كلام هادف وعقلاني.

وتارة أخرى يتم الإنتقال من المفهوم اللغوي ـ التفسير ـ الى مصداقه العيني، وحقيقته الواقعية، أو ما يقع مصداقاً له في العالم الخارجي، فهذا أيضاً من التأويل، الذي يمكن أن يراد به ما يسمى بالتأويل المصداقي، أو الحقيقة الخارجية للآية، مثاله: قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٣٦].

فإن الصراط المستقيم تفسيرها العام: الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج...[٣٧] ويورد الطبري اختلاف المفسرين في المعنى بالصراط المستقيم- أي تأويله - ليشمل معان متعددة: القرآن كتاب الله، والاسلام دين الله، أو المراد به: رسول الله...[٣٨]، وكلّ هذه المصاديق أو التأويلات يمكن فهمها من الآية الكريمة، لأنها تعني: الطريق الهادي إلى الله تعالى. وهكذا فإن لكل آية أو آيات، رسالة هي المراد منها، والقرآن لا لغو فيه ولا هزل، وكل آياته هادفة وذات قصد، وقد دعا الله تعالى عباده الى عدم الجمود على ألفاظه والتدبر فيها والاستنباط منها... وهذه الرسالة هي المعنى المقصود المراد منها والذي نرجع اليه.

ومن الأمثلة المعبرة عن ذلك أيضاً: قصة البقرة، التي سميت بها أكبر سورة في القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٣٩]. فإن هذه القصة بما فيها من وقائع مختلفة وإلحاح قوم موسى في السؤال عن صفات البقرة بتفاصيل كثيرة ونزول الحكم مفصلاً ومشدّداً، كلما ألحوا في السؤال، معيناً لهذه الصفات حتى صعب الأمر وشقّ عليهم... الخ.

لقد ارادت هذه القصة أن توصل رسالة واضحة الى المؤمنين أن لا يتشدّدوا في الأحكام وأن لا يسألوا كثيراً ولا يعملوا إلاّ بما كلفوا به، وهو منهج كان سائداً عند أتباع

الديانات السابقة وجاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليخفف عنهم ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٤٠]، فكانت شريعته السمحاء، وشعارها: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[٤١].

وقد روي عن الرسول (ﷺ): "ذروني ما تركتكم، فإنه أهلك من قبلكم بكثرة سؤالهم بشيء فأتوه وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ما استطعتم"، وورد في تأويل الآيات تلك من سورة البقرة عن ابن عباس: لو أنهم أخذوا أدنى بقرة إكتفوا بها، لكنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم[٤٢].

وهذه رسالة خالدة تدعو الى منهج الاعتدال والتيسير وعدم التشديد والتغليظ، وهو أمر مازال موجوداً لدى كثيرٍ من المسلمين. وهذا الأمر – كما يظهر- أحد المقاصد الرئيسة للآيات وهو تأويلها الكامن وراء تلك القصة وتفاصيلها، وفي ذلك اشارة الى المنهج الذي يؤمر المؤمنون باتباعه، وليس الأمر برمته الوقوف عند معاني الألفاظ وظاهر القصة دون إدراك مقاصدها. وهكذا فإن التأويل يكون تارةً نسقاً متعالياً، وهو في استنباط المفهوم العام المستفاد من الآية أو الآيات، كما في مفهوم الإحياء المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٤٣]، إذ يستفاد من الآية معنى انقاذ الأنسان ومن ثم إحياؤه، سواءً بالإنقاذ من موت أو خطر، أو الاحياء بنقله من الضلالة الى الهدى، كما في بعض الروايات، أو الانقاذ من الجهل، أو المرض، أو الفقر... الخ، فإن هذا المفهوم العام المنتزع من الآية، يعمّ ويكون له في الواقع الخارجي مصاديق متعددة.

وقد يكون التأويل، بالسير في الاتجاه المعاكس، أي بالانتقال من الآية التي تحمل مفهوماً عاماً الى مصاديقه الخارجية، كما في قصة رؤيا يوسف (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[٤٤]، فإن تأويل الشمس والقمر في الآية هو أبوا يوسف.

ولذلك يعتبر يعَّد المفسرين الروايات الواردة في ذكر مصاديق الآيات وموارد الجري والتطبيق[٤٥]، من قبيل التأويل أو التفسير بالباطن للآيات[٤٦]. وقد أوجز الزركشي والسيوطي الأقوال في التأويل (باطن الآيات) الى أربعة أقوال:

المعنى المستلهم من الآية الموافق لظاهرها، كما جاء في المأثور عن الحسن: إذا بحث عن باطنها وقيس على ظاهرها.

قصص القرآن التي لها ظاهر هو اخبار بهلاك الأولين ولها باطن (تأويل) هو وعظ

الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم فيحلّ بهم مثل ما حلّ بهم.، وهو قول أبي عبيدة.

إن ما من آية إلاّ عمل بها قوم ولها قوم سيعملون بها، ونسب هذا الى ابن مسعود، فالتأويل هنا قد يعني: فهم السنة التي جرّت على قوم والتي ستجري على آخرين أمثالهم، أو أن المراد من الآية القوم الذين تنطبق عليهم، الآية.

أن ظاهر الآية لفظها، وباطنها تأويلها، ونسبه الزركشي الى المتأخرين (في زمانه) [٤٧].

ويمكن اختصار هذه المعاني في ما ذكرناه من أنها إما مفهوماً منتزعاً عاماً أو جرياً وتطبيقاً على مصاديق عينية في الواقع الخارجي. وبهذا يمثلّ التأويل: حركية النص، بمعنى تمثل النص في الواقع، مفهوماً وتطبيقاً، وهذا يعني أننا أمام حركية تأويلية للنص لاتقف عند زمان ومكان، إذ يكون لكلّ نص ظهوره وتمثله في ذهن قارئه، وهذا ما يعطي النص حيوية متدفقة ومستمرة، تتجدّد باستمرار ولا يبقى النص حبيس زمان نزوله أو المورد الذي نزل فيه، فليس القرآن كتاب تاريخ مضى أو حكايات قوم سادوا وبادوا، وإنما جاء ما فيه ليكون دليلاً لتاليه، على مرّ الزمان وتغيّر الأحوال، وما فيه من قصص وسيرة وأمثال وحكم، إنما هي أمثلة للإعتبار ومقاسات معيارية للسلوك، فهو كتاب نور وهداية ومنهج سير وحياة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[٤٨]. ولذا فإن القرآن يعيش في الحاضر والوجدان من طريق تجليات معانيه واضطرادها في مناحي الحياة، بما يحمل من حكمة لامتناهية وتجليات ولاّدة مضطردة في المعاني والمصاديق الخارجية.

وهذا ما نجده في نص ثري، عن الإمام الباقر محمد بن علي بن الحسين (عليه السلام)، إذ يقول قي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٤٩]، قال: ﴿... إن القرآن حي لا يموت والآية حية لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في أقوام وماتوا ماتت الآية ولمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين﴾[٥٠].

وبنفس المعنى يأتي الشرح عن والده الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) ليؤكّد حياة النص القرآني وجريانه عبر الزمان والمكان بما يكتب له الخلود فيقول: " إنّ القرآن حي لا يموت وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أوّلنا "[٥١]. ومما تقدّم

فإنّ الجمود على ظاهر النص، أو تحديد معناه بمورد النزول وبمن نزلت فيهم الآية، دون الانطلاق منها للانفتاح على المعاني الماورائية للآية وما تحمل من مفاهيم وما تنطبق عليه من مصاديق... إن ذلك يمكن أن يكون مصداقاً لما ورد في القرآن من النهي عنه وذمّه، إذ يقول تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾[٥٢].

وهذه الحركية تكون في تراتبية وصيرورة مستمرة، مالم يعيقها عائق ويقف دونها عقل مغلق أو فهم سطحي جامد، وهذا التأويل يتناسب مع ما يذهب إليه المفكرون إذ يقول المفكر الفرنسي بول ريكو: إنّ الفهم يميل بشكل عام نحو الوحدة القصدية للخطاب والتفسير الذي هو أكثر إتجاهاً نحو البنية التحليلية للنص، والتأويل ـ بحسب رأيه ـ ليس طرفاً ثالثاً، في الجدل بين الفهم ـ الأولي ـ والتفسير وإنما هو: "حالة من حالات الفهم... هو الفهم حين يطبق على تعبيرات الحياة المكتوبة" إذ يكون الفهم اساساً ساذجاً بمعنى النص ككل، وفي المرة الثانية سيكون الاستيعاب خطاً معقداً من الفهم تدعمه إجراءات تفسيرية

ففي البداية: الفهم مجرد تخمين، وفي النهاية يرضي الفهم مفهوم التملك وسببه التفسير إذن، بوصفه وساطة بين رحلتين من الفهم[٥٣].

إذاً لدينا أولاً الفهم الساذج - العام - للنص والذي ينتقل بدوره الى التفسير " المعقد " للنص.. أما التأويل فهو ـ بحسب رأي ريكور - فإنه بمثابة التمثيل الحاضر لدى القارئ للنص المكتوب إذ يقول: " يسعى التأويل في مرحلته الأخيرة الى المساواة والمعاصرة والاندماج بمعنى المشابهة وتحقيق هذه الغاية بمقدار ما يحقق التأويل معنىً للنص للقارئ الحاضر، وهذا هو، المعنى السيال المتحرك بوصفه اتجاه الفكر الذي يفتحه النص"[٥٤]. وهكذا تجد أن الآراء المعاصرة لا تبتعد عن الرؤى المعرفية التقليدية للتأويل، بل هي قريبة منها، وان اختلفت لغة التعبير هنا وهناك. فهذه الحركة الانتقالية من الفهم العام للنص بما يمكن أن نسميه الفهم اللفظي الذي يمثّله التفسير في أثناء: "كشف المغلق من المراد بلفظه وإطلاق للمحتبس عن الفهم به" ليكون بذلك: "كشف معاني القرآن وبيان المراد"[٥٥] ومن ثم يكون انسياب الفكر وصيرورته الى ما وراء هذا المعنى وما يؤول اليه[٥٦]، وذلك هو التأويل، فالتفسير: هو بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، والتأويل: تفسير باطن اللفظ[٥٧].

والطريق الى التأويل يمر عبر معاني الألفاظ وتفسيرها، ولذلك فليس المراد من التأويل - هنا - المعنى المخالف لظاهر اللفظ، كما هو الشائع في المباحث الكلامية عند المتأخرين[٥٨].

وللشاطبي تفصيل جميل لذلك إذ يقول: إنّ المراد بالظاهر هو المفهوم العربي(*)، والباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه ولذلك كان الندب على التدبّر في القرآن والفقه فيه، فإن الله تعالى ذمّ قوماً لم يفقهوه إذ قال: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[٥٩] والمخاطبون بذلك عرب كانوا يعرفون ظاهر معانيه ولكنهم لم يفهموا المراد منه _تأويله _ ولذلك قال الشاطبي: "فاعلم إن الله تعالى إذا يقصد بذلك الفهم اللغوي للنص، نفى الفقه أو العلم عن قوم، فذلك لوقوفهم مع ظاهر الأمر وعدم اعتبارهم للمراد منه، واذا ثبّت ذلك فهو لفهمهم لمراد الله من خطابه، وهو باطنه"[٦٠].

وهذا المعنى الباطن تأويل الكلام، بمعنى المراد من النص وما وراء ألفاظه من معانٍ، لم يغب عنه أوائل الصحابة والمفسرون للقرآن، بل ذهب كثيرٌ منهم الى أن فهم القرآن وفقهه لا يتحصّل بمجرد تفسير الظاهر، فعن ابن مسعود: "من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن" وقد شرح ابن الأثير مراده فقال: "أي لينقّر عنه ويفكّر في معانيه وتفسيره وقراءته". وقريباً من هذا المعنى ما نقل عن ابن أبي الدرداء قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً[٦١].

ويتعدى الأمر ذلك، إذ إن الجمود على ظواهر ألفاظ بعض الآيات وعدم تأويلها بما هو سائغ عند أهل اللغة من فهم المعنى المجازي أو ما وراء اللفظ من معنى، يؤدي أحياناً الى القول بالتشبيه، أي تشبيه صفات الخالق بصفات المخلوقين، وهو ما وقع فيه أقوام أجروا ما ورد من صفات الله تعالى من آيات وروايات على ما يتعارف في الأجسام، فقالوا: "لابد من إجرائها على ظاهرها والقول بتفسيرها من غير تعرض للتأويل ولا توقف في الظاهر، فوقعوا في التشبيه الصرف، وذلك على خلاف ما اعتقده السلف... "[٦٢].

وفي القرآن ما يستحيل حمله على ظاهره، كما يقول الزركشي فيحمل على المؤول، لا المعنى الظاهر الراجح فيه، كقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾[٦٣]، فإنه يستحيل حمله على الظاهر لاستحالة أن يكون آدمي له أجنحة فيحمل على الخضوع وحسن الخلق،

وكقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[٦٤] يستحيل أن يشدّ في القيامة في عنق كل طائع وعاصٍ وغيرهما طير من الطيور، فوجب حمله على الكتاب في الحساب كلّ واحد بعينه. وقد ذكر الزركشي روايات متعددة عن الرسول الكريم (ﷺ) في بيان معاني القرآن: كان كثيرٌ منها في تأويل هذه الآيات، لبيان المقصود منها أو التعريف بمصاديقها[٦٥].

ما وراء المعنى:

إذا أريد بالتأويل، المصطلح الشائع، من أنه المعنى الآخر للنص، بعد التفسير، فقد اشترط فيها شرطان، الأول احتمال اللفظ للمعنى الذي أوّل له، والثاني بيان الدليل للموجب للصرف إليه في المعنى الظاهر، فيجب أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض[٦٦].

وهذا يصحّ إذا كان التأويل من قبيل صرف اللفظ عن المعنى الراجح – ظاهره – الى المعنى المرجوح بدليل، وهذا قد يتداخل مع التفسير لأنه يدور في دائرة المعنى اللفظي، وقد يكون من باب الأخذ بالمعنى المجازي في مقابل المعنى الحقيقي، ولذلك ذهب قدماء المفسرين الى اتحاد معنى التأويل مع التفسير، كما هو عند الطبري إذ يقول في مقدمة تفسيره: "ونحن في شرح تأويله وبيان ما فيه من معانيه من شؤون لكلّ ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعاً... "[٦٧]، وإنما قدم التأويل وأردف بالمعاني لأنه عنى بذلك تفسيره... وكذلك كان منهج الطوسي الذي عدّ التأويل والتفسير بمعنىً واحد[٦٨].

كما يصحّ ذلك إذا عدّ التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلاّ وجهاً واحداً، والتأويل: توجيه لفظ متوجه الى معانٍ مختلفة الى واحد منها لما ظهر من الأدلة[٦٩]، إذ ما زال المدار المعنى الظاهري المتعلّق باللفظ، فإذا تعدّدت معانيه كان اختيار واحد منها يحتاج الى دليل، وإلاّ كان الترجيح بلا مرجّح.

أما إذا أردنا من التأويل: المعنى الباطن، أي ما وراء المعنى، من معانٍ وآفاق تتداعى الى الذهن بشكل طبيعي وقد يكون تلقائياً، كعمل ذهني معتاد بالانتقال من المثال الى المفهوم، ومن المفهوم الى مصاديق، فإن هذه المعاني الآفاقية وإن يشترط فيها أن لا تكون غريبة عن الألفاظ والكلمات المكونة للنص ومعناه الظاهر، وإلاّ كانت لغواً وحشواً زائداً، لكن لا يشترط فيها إقامة الدليل والبرهان عليها، لأنها جزء من بيان النص وتجلٍّ من تجلياته، وبدونه

يكون اللفظ محتبساً في قوالب الظاهر من المعاني دون أن ينطلق متحركاً في الحياة، بل في الآفاق، لتتكاثر الأمثلة وتتعدد البيانات، كما في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٧٠]. وهو وعد إلهي بأنه تعالى سيكشف للناس عن آياته في نواحي السماوات والأرض وفي أنفسهم بما يبرهن ويثبت أن القرآن هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا الوعد مفتوح على المستقبل زماناً ومكاناً، بكل ما يستجد من علم ومعرفة وما يصل إليه الإنسان من عوالم الوجود اللامتناهية.

ان هذه المعاني الآفاقية، بما تحمل من آيات ودلالات، لابد أن يكون منطلقها – كما سبق - ظواهر الآيات وأن لا تكون غريبة أو أجنبية في معانيها عن تفسيرها، ولكنها تتأتئ من الغوص في تلك الآيات أو التحليق في أجوائها بما يجول فيه الفكر ويسمح به الخيال، وهذا هو التدبّر، وإلاّ كما سبق، فإن المخاطَبين بالقرآن كانوا يعرفون غالباً معاني الالفاظ ويفهمون ما يراد منها من بلاغات، فإن القرآن نزل بلسانهم[٧١] وكان بياناً للناس[٧٢] لكل الناس، وقد يسّره الله تعالى فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٧٣]، أي: "سهلنا لفظه ويسّرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس "[٧٤]، و: "كان معلوماً غير جائز ان يخاطب جلّ ذكره أحداً من خلقه إلاّبما يفهمه المخاطب فغير جائز أن يكون مهتدياً، من كان بما يُهدى إليه جاهلاً "[٧٥]. ومع هذه المعرفة بالقرآن ومعانيه إلاّ أن القرآن ذمّ أقواماً لم يتدبّروا فيه لِيصلوا الى ما بعد المعاني الظاهرة من دلالات وبيانات إذ يقول تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾[٧٦].

هذه السياحة التأملية والتأويلية في القرآن هي التي تفتح بصيرة الإنسان ليرى بعقله وقلبه، ما وراء ما تدركه العيون والأبصار، وهو الذي يجعل القرآن نوراً يستضاء به ينير دروب الحياة الماضية والحالية والمستقبلية، وهذه الآفاق المتولدة في النفس دليلها تولدّها من نفس الآيات حين التأمل والتدبّر فيها، وهي لا تتقاطع أبداً مع تفسيرها وتأويلها الظاهر، بل هي ظلال لهذا الظاهر وتجلّيات لذلك التفسير.

ومن هنا فليس هناك تدافع ولا تقاطع بين تفسير القرآن، والذي لابد أن يكون منضبطاً بضوابطه وملتزماً بأصوله، من دون رأي شاذٍ أو هوىً، وبين التأويل الذي لا يريد أن يحلّ محل التفسير ولا يكون

بديلاً عنه، وإنما هو سياحة في ضوء هذا التفسير وتمثل لمعانيه السامية في مناحي الحياة المختلفة.

إنه الاستهداء بالقرآن والاستشفاء به، بمعنى طلب الهداية من كتاب الله وإتباع ما جاء فيه لغرض علاج الأمراض القلبية، والسياحة مع كلمات الله في أبعادها النورانية.

والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٧٧]، أي من كل مثل يحتاجون إليه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[٧٨].

قال ابن عاشور: "التذكر: التأمل والتدبّر لينكشف لهم ما هم غافلون عنه سواء ما سبق لهم به من علم فنسوه وشغلوا عنه بسفاسف الأمور ومالم يسبق لهم علم به مما شأنه أن يستبصر الرأي الأصيل حتى إذا انكشف له كان كالشيء الذي سبق له علمه وذهل عنه فمعنى التذكر معنىً بديع شامل لهذه الخصائص"[٧٩].

وهذه القراءة التدبرية والسياحة الفكرية مع القرآن، تتنوع وتتعدد مجالاتها بحسب اختلاف الناس في فهمهم ودرجات علمهم، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...﴾[٨٠].

"ومن هذا الوجه كل من كان حضّه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر، ولذلك إذا ذكر الله تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافتها الى أولي العقل، ومرة الى أولي العلم، ومرة الى السامعين، ومرة الى المتفكرين ومرة الى المتذكرين، تنبيهاً على أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها، وذلك نحو قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٨١] وغيرها من الآيات"[٨٢]، وبذلك تكون معاني القرآن متجدّدة وآفاقه لامتناهية كما يقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[٨٣]. وهذا هو الذي كتب للقرآن الخلود ولمعانيه التجدّد والتوالد، فهو كما قال أمير المؤمنين: "إن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق: لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلاّ به"[٨٤]. وبذلك يكون التأويل رحلة مع معنى النص إلى ما وراء النص من معانٍ ودلالات كانت وما زالت هي المراد من أي نص ناطق، وهل هناك نص ناطق كالقرآن؟.

إنّ ما وراء ما نقرأه ونعقله من القرآن أمراً، هو بمنزلة الروح من الجسد، وهو الذي تعتمد وتتكئ عليه معارف القرآن

المنزل ومضامينه، وليس من نسخ الألفاظ المفرّقة المقطّعة ولا المدلول عليها بها... وهذا هو بعينه تأويل القرآن لانطباق أوصافه ونعوته عليه[٨٥].

الهوامش:

(١) سورة القمر، الآية: (٢٢).

(٢) ينظر كتابنا: منهج النقد في التفسير، ط١، دار الهادي، بيروت، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص.

(٣) قال تعالى: ﴿الر كتاب أُحكمت آياته ثم فصلَّت من لدن حكيم خبير﴾ (سورة هود: الآية ١).

(٤) قال تعالى: (هو الذي أنزل..... أولوا ألالباب) (سورة عمران، الآية (٧).

(٥) سورة الفتح، الآية (١٠).

(٦) القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري، ط، دار الفكر، دمشق، ج ١، ص.

(٧) الراغب الاصفهاني، أبو القاسم الحسني بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص٥٥١.

(٨) ينظر: حرب، علي، نقد الحقيقة، ط٢، المركز الثقافي العربي، ص٢٦.

(٩) السيوطي، الإتقان في علوم القران، ج٢، ص١٢٠٣، نقلا عن ابن ثمينة، ط٣، دار ابن الكثير، دمشق ١٤١٦هـ-١٩٩٦م

١٢الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١، ص٢٩، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٥م-١٤٢٦هـ.

(١٠) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ط٤، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

(١١) الطبري، التفسير، ط الحلبي، ج١، ص٣٤.

(١٢) الطبرسي، أبو الفضل، مجمع البيان في تفسير القرآن، ط دار الكتب العلمية، ج١، ص١٤.

(١٣) السيوطي، المصدر نفسه، ص١١٩٠.

(١٤) قال أبن خلدون: "إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلّهم يفهمون ويعلمون معانية في مفرداته وتراكيبه" أنظر: مقدمة أبن خلدون، ط ١، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ص٤٨٩.

(١٥) سورة فصلت، الآية (٤٤).

(١٦) سورة فصلت، الآية (٥).

(١٧) سورة البقرة، الآية (١٧١).

(١٨) السيوطي، المصدر السابق، ص١٢٠٥.

(١٩) السيوطي، المصدر السابق، ص١٢٣٧-١٢٨٨.

(٢٠) الراغب الاصفهاني، أبو القاسم: مقدمة جامع التفسير تحقيق: د أحمد حسن

فرحان ص٤٦، ط١، دار الدعوة، الكويت (١٤٠٥-١٩٨٤م)، ص٤٦.

(٢١) السيوطي، الاتقان، ج٢، ص١١٩٠.

(٢٢) ابن فارس، أحمد، معجم قواميس اللغة، ط. دفتر تبليغات اسلامي، قم، مادة: اول.

(٢٣) الراغب الاصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق: صفوان عدنان، داوري.

(٢٤) أنظر: ابن تيمية، التفسير الكبير، ج٢، ص ١٠٢.

(٢٥) الطبطبائي، محمد حسين، الميزان، الميزان في تفسير القرآن، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٠هـ، ج٣، ص ٤٥.

(٢٦) وهو رأي السيد محمد باقر الصدر، انظر: الحكيم زكريا، علوم القرآن، ط٣، مؤسسة الفكر الاسلامي، ص ٢٣١.

(٢٧) سورة محمد، الآية: (٢٤).

(٢٨) -. سورة يونس، الآية: (٢٤).

(٢٩) سورة النور. الآية: (٦١).

(٣٠) سورة زمر، الآية: (٢٧).

(٣١) سورة زمر، الآية: (٢٧).

(٣٢) سورة الفجر. الآية: (١٤).

(٣٣) السيوطي، المصدر السابق، ج٢، ص١١٩٠.

(٣٤) سورة ابراهيم، الآية: (٤٢).

(٣٥) الطبري، المصدر السابق، ج٢٦، ص٦٨.

(٣٦) سورة الفاتحة، الآية: (٥).

(٣٧) الطبري، المصدرالسابق، ج١، ص ٨٥.

(٣٨) المصدر نفسه: ص٨٧.

(٣٩) سورة البقرة، الآية: (٦٧).

(٤٠) سورة الاعراف، الآية: (١٥٧).

(٤١) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

(٤٢) الطبري، المصدر السابق، ج١، ص٣٨٩.

(٤٣) سورة المائدة، الآية: (٣٢).

(٤٤) سورة يوسف، الآية: (٤).

(٤٥) مفهوم الجري مأخوذ من المروي عن الباقر، وبقصد به جريان الاية على ما تنطبق عليهم من غير الذين نزلت فيهم.

(٤٦) الآوسي، علي، الطباطبائي، منهجه في النفسير، ط١، منظمة الاعلام الاسلامي، ص١٩٢.

(٤٧) ينظر: الزركشي، البرهان، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ، ج٢، ص ١٦٨.

(٤٨) سورة الاسراء، الآية: (٩).

(٤٩) سورة الرعد، الآية: (٧).

(٥٠) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ج٢، ص٢٠٣.

(٥١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ط٣، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٣هـ ج٢، ص٢٧٩.

(٥٢) سورة محمد، الآية: (٢٤).

(٥٣) بول، ريكور، نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعنى، ترجمة: سعيد الغانمي، ط المركز الثقافي، ص ١٤٤.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٥٥) الزركشي، المصدر السابق، ج٢، ص١٤٧- ١٤٩.

(٥٦) لسيوطي، المصدر السابق، ج١، ص١٥٠.

(٥٧) السيوطي، المصدر السابق نفسه.

(٥٨) الآوسي، المصدر السابق، ص١٩٢.

(٥٩) سورة النساء، الآية: (٧٨).

(٦٠) الشاطبي، ابو اسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، ط المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٥ _٢٠٠٤م_ج٣ ص٢٤٣.

(٦١) الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، ط ١، دار القلم، بيروت ج٢، ص٣٨٦.

(٦٢) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط دار المعرفة، بيروت، ج١، ص٨٤، ٩٧.

(٦٣) سورة الاسراء، الآية: (٢٤).

(٦٤) سورة الاسراء، الآية: (٢٤).

(٦٥) الزركشي، المصدر السابق: ص١٢٤٦-١٢٦١.

(٦٦) الشاطبي، المصدر السابق، ج٣، ص٢٥٢.

(٦٧) الطبري، المصدر السابق، ج١، ص٩.

(٦٨) الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، ط دار احياء التراث العربي، بيروت، ج٢، ص٣٩٩.

(٦٩) المصدر نفسه، ج١، ص٨٠.

(٧٠) سورة فصلت، الآية: (٥٣).

(٧١) سورة فصلت، الآية: (٥٣).

(٧٢) قال تعالى: ﴿وما ارسلنا من رسول إلّا يلسان قومه﴾ (سورة إبراهيم، الآية: ٤).

(٧٣) سورة القمر، الآية: (١٧).

(٧٤) -. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، ط دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٣ _ ٢٠١٢م، ص١٧٩٠.

(٧٥) الطبري، المصدر السابق، ج١، ص١٨.

(٧٦) سورة محمد، الآية (٢٤).

(٧٧) سورة الزمر، الآية: (٢٧).

(٧٨) سورة الانعام، الآية (٣٨).

(٧٩) ابن عاشور، محمد بن طاهر، ط٢، الدار التونسية، تونس، ج ٢٣، ص ٣٩٧.

(٨٠) سورة الرعد، الآية: (١٧).

(٨١) سورة الرعد، الآية: (٤).

(٨٢) الراغب الاصفهاني، ابو القاسم، مقدمة جامع التفسير، المصدر السابق، ص٧٦.

(٨٣) سورة الكهف، الآية: (١٠٩).

(٨٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة للامام علي (عليه السلام)، الرقم ١٨: ومن كلام له (عليه السلام).

(٨٥) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط٣، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٢٩٣هـ، ج٣، ص٥٤.